

التفسير المختصر - سورة هود (١١) - الدرس (٣-٦) : تفسير الآية ١١٧ ، عدالة الله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-١٠-١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين وبعد:
أيها الأخوة الكرام:

الآية السابعة عشرة بعد المائة، من سورة هود وهي قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهَيِّجَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ (١١٧)﴾

في هذه الآية، إشارات دقيقة جداً، أول إشارة أن صيغة، ما كان ربك ليفعل، هذه أشد صيغ اللغة العربية تأكيداً، فالعلماء علماء اللغة، فرقوا بين نفي الحدث، ونفي الشأن.

نفي الحدث لو سألنا أكبر سارق، هل سرقت هذه الحاجة؟ يقول لك هذه لم أسرقها، لن ينفي عن نفسه هذه السرقة، بل نفي عن نفسه سرقت هذه الحاجة، لكنه أكبر سارق.

أما لو سألنا إنسان عظيم، شريف، كريم، أخلاقي، ورع زاهد، هل أنت سارق؟ لا يقول لك لا، يقول لك كلا: أداة ردع وزجر، ويقول لك بعدها: ما كان لي أن أسرق، يعني هذا ليس من شأني، ولا من طبيعتي، ولا من مقامي، ولا يتفق مع مبدئي، ولا أريده، ولا أفعله، ولا أتمناه، ولا أرضى به.

ممكن تنفي بهذه الصيغة مائة حادثة، تنفي الرضى، والتمني والرغبة، والقبول، والإقرار، ما كان لي أن أفعل.

يعني إذا أردت صيغة في اللغة العربية أشد صيغ النفي على الإطلاق، هذه الصيغة، لو تتبعتموها في كتاب الله.

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾

(سورة الروم: ٩)

يعني يستحيل على ذات الله، وعلى أسمائه الحسنی، وعلى مقامه، وعلى عدالته، وعلى رحمته، وعلى علوه وعلى جبروته، أن يظلم مخلوقاً ضعيفاً.

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾

(سورة البقرة: ١٤٣)

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾

(سورة آل عمران: ١٧٩)

لو تتبعتم في معاجم القرآن الكريم، صيغة، ما كان الله ل، لو قال لك حول موضوع أطروحة، ما كان الله ل، يعني إذا أردت نفي، قطعي يشمل الرغبة، والإرادة، والفعل، والطموح، والإقرار، والهدف استخدم فيه كلمة ما كان الله ل.

أعيد مرة ثانية، لو سألت أكبر سارق هل سرقت هذا الكأس؟ يقول لك لا لم أسرقه، هذا نفي الحدث، لكن نفي الشآن، يقول لك ما كان لي أن أفعل، هذا لا يتفق مع مقامي، ولا مع شأنني، ولا مع أخلاقي، ولا مع سلوكي، ولا مع أهدافي ولا مع مبادئني، ولا أرضى به، ولا أقره، ولا أطمح إليه، ولا، ولا مائة حادثة تنفي.
الآية:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾

يعني زوال الكون أهون على الله من أن يهلك قرية ظلماً، مال عاملة شي، قرية مؤمنة مستقيمة، تقيم الشرع فيما بينها، الله عز وجل يدمرها بزلزال، أو بفيضان، أو بحرب أهلية، لأن الله عز وجل قال:

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾

(سورة الأنعام: ٦٥)

الله عز وجل قال:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾

(سورة النحل: ١١٢)

تدمير القرى، أم بالزلازل، أو بالبراكين أو بالصواعق، أو بالفيضانات، أو بقحط السماء، بجفاف السماء، أو بالأوبئة الفتاكة، أو بالحشرات التي تأتي على المحاصيل، أو بحرب أهلية، أو ببأس الإنسان لبعضه، هذا التدبير وفق حكمة بالغة، وفق تقدير حكيم، قال:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾

هل تصدقون أن ميم بالآية هي المفصل، ميم، لو قالوا وأهلها صالحون يهلكهم، متى لا يهلكهم إذا كانوا مصلحين، يعني الصالح لذاته الأناني هو صالح مستقيم، الناس يصطفوا، ينباعوا بالعزى هالكانيين، ما فيهن خير، كفار، هذا الإنسان الله يعاقبه، لكن، أين فعل الخير؟ أين الأمر بالمعروف؟ أين النهي عن المنكر؟ أين إصلاح ذات البين؟ هؤلاء مسلمون، لا يعنك أمرهم، لا تهتم لهم لا تغار على أعراضهم، لا تبكي لبؤسهم، وشقائهم، من لم يهتم لأمر المسلمين فليس منهم.

إذاً الله عز وجل يهلك الصالح، إذا انسحب من مجتمع وأثر سعادته الذاتية، وقال الناس يصطفوا، أب عندك أولاد، أخ عندك أخوات، جار عندك جيران، رئيس دائرة عندك موظفين، شو يصطفوا، انصحبهم، نبهن، ذكرهم، صاحب معمل عندك عمال محل تجاري عندك صناعية، أخي بدي بس يداوم، ينباع بالعزى يصطف لا يصلي، إذا أنت كنت صالح لحالك، وما في عندك رغبة تكون مصلح الله يهلك.

بعض الأحاديث، أن الله أمر الملائكة بتدمير قرية، قالوا يا رب إن فيها رجلاً صالحاً، قال فيه فبدؤوا، به فبدؤوا، يا رب كيف؟ قال: كان لا يتمر وجهه إذا رأى المنكر، لا يتمر وجهه إذا رأى المنكر.

فأنت مالك أهل؟ مالك بنات؟ مالك أولاد؟ مالك بنات أخ؟ مالك بنات أخت؟ ما بهمك أمرهم؟ أنت عم! أنت كبير القوم! أنت أب! بس بدك ذاتك، بتلاقيه بصلي بأول صف، وزوجته بثياب متبذلة، معقول هذا الكلام! طيب ما تتصحها؟ أنت قيم. فهذه الآية كلها بالميم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾

يعني إذا كانوا صالحين يهلكهم، أما إذا كانوا مصلحين. بالمناسبة صالح أسم فاعل، صلح، يصلح، صالح. أما إذا قلنا أصلح، هذه همزة التعدي، يعني أصلح غيره أصلح، يصلح، مصلح، مصلح، غير صالح، مثل علم، يعلم عالم أما، أعلم، يعلم، معلم، علم، يعلم، معلم. بين صالح ومصلح مسافة كبيرة كثير، صالح بذاته يعني هو صالح في ذاته، لكن مصلح لغيره. فإن لم تكن مصلحاً لغيرك، فالله عز وجل بحاسبك على ذنب السلبية، على ذنب الأنانية، على ذنب عدم فعل الخير، على ذنب عدم المبالاة في المسلمين لذلك الحق إذا ما توسع، الباطل يتوسع ويحاصره، أحد أركان النجاة.

﴿إِنَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾

(سورة العصر: ٣)

فيا أيها الأخوة الكرام: هذه آية دقيقة، يعني الله عز وجل لا يهلك القرى بظلم ولكن يهلك بعدل. أنا حدثني مرة قصة على أنها بسيط جداً، لكن لها دلالة كبيرة قال لي أخ: سيارة تعمل على خط بين دمشق وبيروت، يظهر أن في شب زوجته حجزوا بالسيارة مقعدين، وقال له نحن الساعة الثالثة فرضاً نحننا في انتظارك، الساعة الثالثة جاء السائق على الوقت، قال له أنتظر سوف تأتي محفظة، يعني شنتنا هذا أنتظر السائق ربع ساعة ضاج، وبعدين جاء رجل كبير بالسن يحمل على ظهره حقيبة أعطاها لهذا الشاب، الشاب وخزوه في صدره، ليش تأخرت قال له السائق ما عرف من هذا الإنسان الكبير بالسن، بعدين يبدو أن زوجته عنفته لهذا الشاب، أنه هذا أبوك هذا، لما سمع السائق أن هذا الرجل أبوه، وقف، قال له أنزل، أنزل نعمل حادث، طبعاً لو كان سكت السائق، أقره على عمله، لما أساء لأبوه هذه الإساءة هي السائق وقف مشرف قال له أنزل، نزل هو وزوجته: قال له هل نعمل حادث، أنت إنسان مغضوب، أنزل، حادث بسيط جداً لكن له معنى كبير.

لو كل مسلم يلاقي أنحرف، أساء، عق والديه، سب الدين عمل عمل سيئ، نقاطع كليتنا، الحق ينتشر، سب الدين سكتنا أساء لأبوه سكتنا، اعتدى على أموال الناس سكتنا، جاملنا عزمنا كمان.

فلما نحن ما بهمنا الخير العام بهمنا أنفسنا، نستحق العقاب من الله، هي الآية كلها بالميم، بالميم كلها.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْىَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾

لو أنهم صالحون يهلكهم، يهلكهم، هذا إنسان انسحب من المجتمع، شو بدي بالناس يصطفوا، كل الناس هلكائين، كلهن لجهنم، الله لا يردون، هذا ليس موقف مؤمن يغار على المسلمين. سيدنا رسول الله قال له جبريل: لو أردت لأطبقت عليهم الأخشبين، ((لا يا أخي اللهم أهدي قومي، أنهم لا يعلمون، لعلى الله يخرج من أصلابهم من يوحده.)) فأبينا كلها اليوم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْىَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾

إذا ما تتجو من عذاب الله إلا إذا كنت صالحاً مصلحاً طاهراً مطهراً، مهتدياً هادياً، محسن، يعني لازم تخرج من ذاتك إلى خدمة الآخرين، حتى المجتمع يصلح، إذا كل واحد استقام لحاله وأنسحب، هذا أنسحب، المجتمع من له، لذلك العلماء قالوا، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هو الفريضة السادسة، صوم صلاة، حج، زكاة، والفريضة السادسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدليل.

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُقْلِحُونَ (١٠٤)﴾

(سورة آل عمران: ١٠٤)

نبدأ ببيوتنا، بزوجاتنا، بيناتنا، بأولادنا، بأولاد أخواتنا بأخواتنا البنات، أخوانا الذكور، بجيراننا، بأصدقائنا، بمعارفنا بشركائنا.

فنحن هذا إذا كان خرجنا من ذاتنا، بإصلاح غيرنا، الله عز وجل يرحمنا ويعفو عنا، ولا يهلكنا. قال لهم به فأبدوا، أما إذا كان انسحبنا من المجتمع، وأثرنا حظوظنا حتى الروحية، ولم نعبئ بمستقبل أمتنا، إذا الدعاة انسحبوا والعلماء انسحبوا والمؤمنين ما نصحوا، والشباب ضايعين، فاسدين والمستقبل أسود ومظلم.

فيا أخوانا الكرام هذه الآية خطيرة جداً، يعني نحن لا يكفي أن نكون صالحين، ينبغي أن نكون مصلحين، مصلح أسم فاعل من الرباعي، أصلح غيره يصلح، مصلح، أما صالح من الثلاثي صلح، يصلح، صالح، صالح ذاتياً، أما مصلح لغيره.

هي الآية كلها بالميم، مركز ثقلها بالميم، وبعدين، وما كان الله ل، هذه أشد حالات النفي باللغة، أسمه نفي الشأن، يعني لا يفعل ولا يريد، ولا يتمنى، ولا يرضى، ولا يقر، وليس من أخلاقه وليس من طبيعته، ولا من سجيته، ولا من خصائصه، ولا من مقامه.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾

(سورة العنكبوت: ٤٠)

ليست نفي الحدث، إذا قلنا لم يظلمهم، نفي الحدث.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾

نفي الشأن .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، وأكرمن ولا تهنا وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وأرض عنا وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم.

والحمد لله رب العالمين